مصر والسودان

اتيحت لنا زيارة السودان في الشهر الماضي فسرى بنا القطار على جناح البخار الى ان تبلج وجه الصباح . وهبّت ذوات الجناح . وتصاعدت انفاس الطلى يعبث بها النسيم جنوباً . وبسطت الغزالة اشعتها على مروج كساها الزمرّد ثوباً قشيباً . وجرى النيل فيها يحمل النضار ويقلّ بواخر التجار والسفّار . وهياكل القدماء تشرف عليه كالحفر . وتنيء عنا مرّ بها وبه من العبر . فتذكرت السنين الخالية ونبهت القريحة الخاملة فجادت بالابيات التالية . فقلت مخاطباً النيل وما ابقاهُ القدماء من آثار عظمتهم

١

ابا مصرٍ[1] ومصدر نعمتيها لقد شاخ الزمان وانت كهلُ
بنى لك آلُ فرعون صروحاً عُبدتَ بها وانت لذاك اهلُ
فما نفس رأت نعماً غزاراً وخصباً لا يقوم لديه بخلُ
وكان الشكر مرمى ناظريها وربُّ الكون لم يدركهُ عقلُ
بشركة اذا شكرت صنيعاً عن الإدراك صانعهُ يجلُ
فان الفضل يعرفهُ ذووهُ وفضل النيل لا يعلوهُ فضلُ

٢

ابا مصر مضت يحتَب طوالٌ وانت تجودُ بالخيرات مِصْرا
تجيءُ بها من السودان عفوًا وتنثرها على الاوطين نثرا
بحيرات الجنوب لك الجواري نواصرها[2] لديك تطيع امرا
فتجرف تُرْب احباش ودنكا[3] وتبكهُ فيصبح فيك تبرا
وتحملهُ على حمر المطايا تسيل بها البطاح الجردُ بحرا
سخاءٌ لا يُرى شحٌّ لديه وجودُ البحر عند النيل بخلُ

٣

ابا مصر اتدري كم شعوب بواديك استعزّوا ثم هانوا

---

(١) كناية عن النيل لان بلاد مصر مذكورة من قرائنه (٢) النواصر الانهر الصغيرة التي تصب في غيرها (٣) بلاد الدنكا في جنوب بلاد السودان

آثارات الارض احيوها قديمًا نحن محنا قاحلها جنانها
مهندسهم درى مسح الاراضي وجرّ الثقل ما كان الهوانُ
بنوا الاهرام محكمة الزوايا لديها كل صرح مستهانُ
فما الشعرى دليل مستمرٌّ ونجم القطب ما كرّ الزمانُ
وفيها من بديع الصنع آيٌ الى صنّاعها لم يوحَ شانُ[1]

٤

هياكلهم كتاب جاء فيهِ حديث ملوكهم من قبل مينا[2]
ترى جدرانها والنقش فيها تحسبهُ طلاسم ساحرينا
رآهُ العرب منذ الفتح لغزًا فاسمى مغلقًا هذي البنينا
ولكن في بلاد الترب قوم رأوا مجد الحال هدًى ودينا
فامضوا خيل عزمهم فحلّت وحازت كشف سرّ الغابرينا
تواريخ واخبار ووصف لملك دام لم يدخلهُ فصلُ

٥

الهيت

صروح الدين لم يبقَ سواها بوادي النيل من اثرٍ مجيدِ
تعلّقت النفوس بها فكرّت دهور وهي في عيش رغيدِ
يواصلها العواهل بالهدايا وكان الهياكل بالنضيدِ
واهل القطر طرًّا باعطايا لرب النيب عن كرم وجودِ
عبادات النفوس الامرُ فيها لآمال النفوس بلا محيدِ
ومال في سبيل البرّ يُعطى لأفضل ما ازدرعت وتستفيدُ

٦

مدافنهم خلود النفس فيها ادلّتهُ على نهج انيقِ
ترى ماضي الدفين كأن سفرًا يترجمهُ بتفصيل دقيقِ
مغازيه وما قد نال منها من الاموال فيئًا والرقيقِ
معيشتهُ وما اعطى واسدى وما اولاهُ في سعةٍ وضيقِ
وما يرجوهُ من نعم وزلفى بآخرق لدى ربٍّ شفيقِ
حنوط الجسم يحفظهُ دوامًا وقمص الميت آيُ الحمد تنمو

(١) اي مثلة (٢) اسم اول ملك من ملوك مصر

٧

مفاخر حازها اهلوك دهرًا وأورثها البطالس حين سادوا
مشاعر دينهم حفظوا حرامًا[1] واعلوا سيف حياكلهم وشادوا
أية دينهم ارضوا فارضوا لنيف الشعب وارتفت البلادُ
وجاء الروم بعدهمُ فجاروا وجزوا الصوف واحتلبوا وقادوا[2]
وبعدهم تنابعت الرزايا جيوشًا تُسْتَحَثُّ وتستزادُ
بناه الملك صعب لم يرمهُ سوى العظماء والتخريب سهلُ

٨

ابا مصر مضت حجج طوال اواصرها التخاذلُ والفناه
وسلب المال والارواح عفوًا كأن الخلق أنعام وشاه
وتخريب البلاد فلا زروعٌ وتشتيت العباد ولا عداه
فضجّ القطر من ظلم وجور وكم داء يكون بهِ الدواه
فشاء الله ان مضت الليالي ليالي السوء وانتشر الضياه
وارسل آل اصلاح وعدل وحسب الشعب اصلاحٌ وعدلُ

وكنت قد عقدتُ النيّة على ان اتابع السير حتيًّا حتى اصل الخرطوم ثم اعود منها على مهل واتعهّد المعاهد القديمة لأرى ما كشف فيها بعد زيارتي الاولى لها[3] . فبلغت الشلال وركبت سفينة بخارية اجتازت بنا النيل الى حلفا والبلاد على ضفتيهِ ضيقة النطاق قد لا يزيد عرضها على امتار ولكن خيلها وزروعها على غاية الخصب والنماء واهلها من البرابرة وهم يروونها بالسواقي والشواديف وكلما هبط النيل عن شبر من الارض زرعوهُ الترمس والفول والذرة وعددهم نحو ثلثمئة الف نخلة لهم منها ريع وافر . وجمهور كبير منهم متفرق في مدن القطر المصري لخدمة اهلهِ يرسلون ما يفيض معهم من اجورهم الى اهاليهم في تلك البلاد فيبلغ خمسين او ستين الفًا من الجنيهات في السنة على ما يُعلم من دفاتر البريد . وقد بنوا قرًى كثيرة على الضفتين وشادوا بعض بيوتها بالشيد فتظهر كالثوب الابيض على ما وراءها من الصخور الجرداء . ولكن شتان بين ما هم فيهِ الآن وما كانوا عليهِ في غابر الازمان ان كانوا من نسل النوبة سكان تلك البلاد في عصر الفراعنة فان ملوكها كانوا يغزون القطر المصري المرّة بعد الاخرى وقد تأطّوا

(١) اي محرمين (٢) من قادهُ اذا اقتنى (٣) ترى وصف هذه الزيارة في رسائل النيل التي نشرت في المجلد الخامس عشر من المقتطف

عليه غير مرّة في القرن الرابع والعشرين قبل المسيح غزوا مقاطعة اسوان وفي القرن العاشر قبل المسيح اقتبسوا العمران المصري وتدينوا بالديانة المصرية وعبدوا معبودات مصر وامتدوا في فتوحهم الى القطر المصري حتى اذا كان القرن الثامن قبل الميلاد استولوا عليه كله وصارت منهم الدولة الخامسة والعشرون من الدول المصرية

وحارب الفنيقيون البطالسة وكانت الحرب بينهم سجالاً وتنصروا في القرن الخامس والسادس وغزاهم العرب لما فتحوا مصر وظلوا يدافعون العرب تارة ويهاجمونهم أخرى الى اواخر القرن الثالث عشر للميلاد فانحطّ شأنهم بعد ذلك وراجت النخاسة في بلادهم وتدرّجوا في الانحطاط حتى صاروا لا ملك ولا رئيس ولا شأن يذكر

والبحث عن ملوك النوبة وآثارهم واخبارهم لا يخلو من فائدة ولذلك سنعقد له فصلاً طويلاً بعد الانتهاء من مفاخر البطالسة

ووصلنا مدينة حلفا عصاري النهار وركبنا منها قطاراً بخارياً قطع بنا مفاوز السودان وقد امتدّ الى ان وصلنا مدينة الخرطوم ونحن لا نصدّق اننا نمرّ في بلاد كانت بالامس ميداناً لسفك الدماء واجتراح المنكرات ولم أكد اصل الخرطوم حتى سئلت عما رأيتهُ في سفري اليها وما وجدتهُ فيها فكتبت الرسائل التالية في جريدة السودان وها انا انقلها واضيف اليها ما سمحي ضيق المقام عن اثباته فيها

الرسالة الاولى

ترى كثيرين من اهل السياحة والرحلات يكتبون المجلدات الضخمة عن بلاد مرّوا بها ولم يقيموا في كل بلد منها سوى بضعة ايام او بضع ساعات واهل تلك البلاد الذين ولدوا فيها واقاموا السنين الطوال يتعذّر عليهم ان يكتبوا عنها فصلاً واحداً ولو حاولوا ذلك لرأوا في ما يعترضهُ من التفاصيل ما يتعذّر معهُ الكلام المجمل الذي يكتفي به السيّاح . الاّ ان النظرة المجملة التي يكتفي بها عابر السبيل قد تدلُّ على الكليات ويجهل الاحوال اكثر مما تدل عليها الامور الجزئية التي تملأ ذهن الساكن المقيم

على هذا البناء تجاسرت وكتبت السطور التالية ذاكراً فيها ما اثرتهُ في نفسي النظرة الاولى التي شاهدت بها بلاد السودان

اول بلد دخلتهُ من بلاد السودان حلفا . لم ارَ فيها بناء فخماً ولا شيئاً يدلُّ على غنى واسع او ثروة طائلة تكتفي وجهتها فوق ما كنت انتظرهُ من حيث انتظام مبانيها وشوارعها

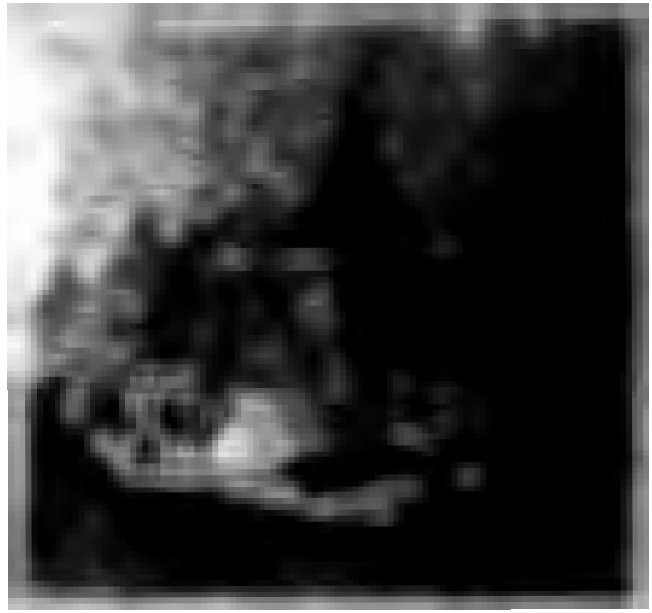

صورة اهرام مروي المعروفة الآن باسم البقراوية

صورة ملك من ملوك النوبة جالس على عرشه والملكة زوجته واقفة وراءه وكذلك الاله ابيس . وهذه الصورة منقوشة على الحرم التاسع من اهرام مروي

وهي في ذلك تفوق كل بلد من حجمها من بلدان القطر المصري . والامر الهام الذي اتجه اليه نظري حالما دخلتها وسرت في شوارعها هو نظافتها التامة مما ليس له مثيل في بلدان القطر المصري ولا في مدنه الكبيرة ولا استثني القاهرة عاصمة الديار المصرية . فالقدين في يدهم نظافة المدينة حريون بكل شكر من هذا القبيل لاسيما وان الاموال التي تنفق في تنظيفها يجموعة من اهاليها

ثم زرت المستشفى الملكي وسألت حضرة طبيبه الدكتور نجيب ابلاً عن الصحة العمومية والامراض الشائعة في المدينة فاكد لي ان الصحة على غاية ما يرام وان الامراض قليلة جداً اكثرها حميات ملارية اصيب بها اصحابها في اواسط السودان لا في حلفا نفسها ولتلوها امراض العيون الناتجة عن كثرة الغبار وشدة الحرارة والنور . ولم يزل السكان الاصليون بعيدين عن النظافة المطلوبة لحفظ الصحة

وقد راقني ما رأيته في بيت التلغراف وهو ان عماله من الشبان السودانيين وهم على صغر سنهم يحسنون القراءة العربية والانكليزية ورأيت في احد الشوارع بالات كثيرة مرصوفة بعضها فوق بعض فسألت عما فيها فقيل لي انها بالات شاي جلبها حضرة التاجر الهمام عمر افندي نمري وحضرة اخيه وهي يرسم السودان فوقفت مدهوشاً من سرعة انتشار التجارة والحضارة ولم اصدق ان البلاد التي كانت بالامس قمن من ظلم التعايشي ولا يجد اهاليها القدرة يتبلغون بها صارت الآن تجلب الشاي من بلاد الهند بهذه المقادير الكبيرة وهو مشروب اهل الرفاهة . وسألت عن حضرة عمر افندي نمري فقيل لي انهُ ذهب الى بورت سودان ليزور محل التجاري الذي فتحهُ هناك ويراجع حساباته في آخر السنة . ومن لا يندهش لذلك فان بورت سودان لم يمر عليها الا سنة من حين فتحت للتجارة والحال انتفعت منها بيوت التجارة السودانية . ولقد اصاب مصلح مصر وحاكم السودان العام في بذلهما الوسع لانشاء سكة حديد البحر الاحمر لان للتجارة اليد الطولى في نشر لواء العمران

ويشكو اهالي حلفا من ان هذه السكة ستضعف شأن مدينتهم وقد يكون ذلك صحيحاً ولكن ما كان يمكن للتجارة ان تعزز لا في الوارد ولا في الصادر ما دام طريقها على مصر ولتصر واسوان وحلفا والعطمور لطول الشقة وكثرة نفقات النقل . ومصلحة الجمهور مفضلة على مصلحة الافراد

وسكة الحديد من حلفا الى الخرطوم مستوفية كل لوازم الراحة حتى كأننا كنا سائرين في افضل قطرات سكك الحديد في اوربا وكنا نحو عشرين راكباً اكثرهم من الاوربيين

والاميركيين ليس بينهم من المصريين غير الخبير الفني قطاوي البكباشي المشهور والمستر موصيري وظهر لي من الحديث معهم انهم كانوا مسرورين من حسن الادارة والمعاملة شاكرين للمستر بكردي الذي اقام القطار من حلفا في الدبيشة المعينة للتياطر واوصله الى الخرطوم في الدقيقة المعينة لوصوله

وقد رأيت في الطريق ما زادني اعجاباً بهمة الشعب الانكليزي فقد شاهدت رجالهم في المحطات المختلفة ولا سيما محطة الاتبرة لا يعبأون بالحرّ ولا بالغبار ولا بالانقطاع عن وسائل الراحة والرفاهة التي الفوها . وتجلّت لي الحالة التي يمكن ان يوصلوا هذه البلاد اليها ولا سيما من بربر الى الخرطوم حيث يتيسر لهم التحكم بماء النيل حتى يروّوا الوفاً ومئات الوف من الفدادين التي تنتظر الماء فتشدق خيراتها على السكان وعلى اضعاف اضعافهم . ورأيت المدن القديمة التي خربها قلم البراويش وقرض سكانها وآثار المدن الاقدم منها التي لاشتها مظالم العصور الغابرة وكانت عزيزة منيعة منذ الف سنة او الفي سنة فتجلت لي الحالة التي يمكن ان تعود اليها قبل انتهاء القرن العشرين حينما يصير اهالي مصر واهالي السودان ثلاثة اضعاف ما هم الآن

ان هذه البلاد كانت ممالك عظيمة كثيرة السكان وافرة الخيرات ولا سيما مملكة مروي التي لا تزال اهرامها قائمة تناطح السحاب وآثار ملوكها منقوشة في الصخور تناوي اباب الدهر كما ترى في الصورتين التاليتين فان الاولى منهما صورة اهرام مروي كما يراها السائر الى الخرطوم وهي كالاهرام المصرية الاّ انها اضيق قاعدةً بالنسبة الى ارتفاعها . والثانية صورة ملك من ملوك النوبة الاولين ووراءهُ الملكة زوجتهُ والاميرة ايس . والصورة منقوشة على الطرف التاسع من هذه الاهرام وهي كثيرة مختلفة الاقدار وسنسهب الكلام عليها في فصل خاص اجمع فيهِ خلاصة ما يعلم عن تلك البلاد

وكل ما تمّ الى الآن من النجاح وكل ما يمكن ان يتم في المستقبل القريب والبعيد متوقف على اعتناء الحكومة وعلى اهتمام الاهالي اما الحكومة فقد برهنت الى الآن على انها لا تحيد عن سبيل العدل والانصاف ولا تترك واسطة لانجاح البلاد الاّ وتستعملها فلم اسأل احداً من اهالي السودان عن احوال العدل والامن الاّ شكر الحكومة وحمد الله ولم ارَ في الاساليب المتبعة الاّ غاية ما وصل اليهِ العلم والاختراع فالقطار الذي اتينا فيهِ ينار بالنور الكهربائي ويبرد هواؤهُ بالمراوح الكهربائية ويقدم الطعام الفاخر للسافرين فيهِ . ومع طول الشقة وقلة الماء في جانب كبير من الطريق وشدة الحرّ وكثرة الغبار وصل القطار في الدقيقة المعينة لوصوله بعد سير ست وعشرين ساعة ونصف ساعة

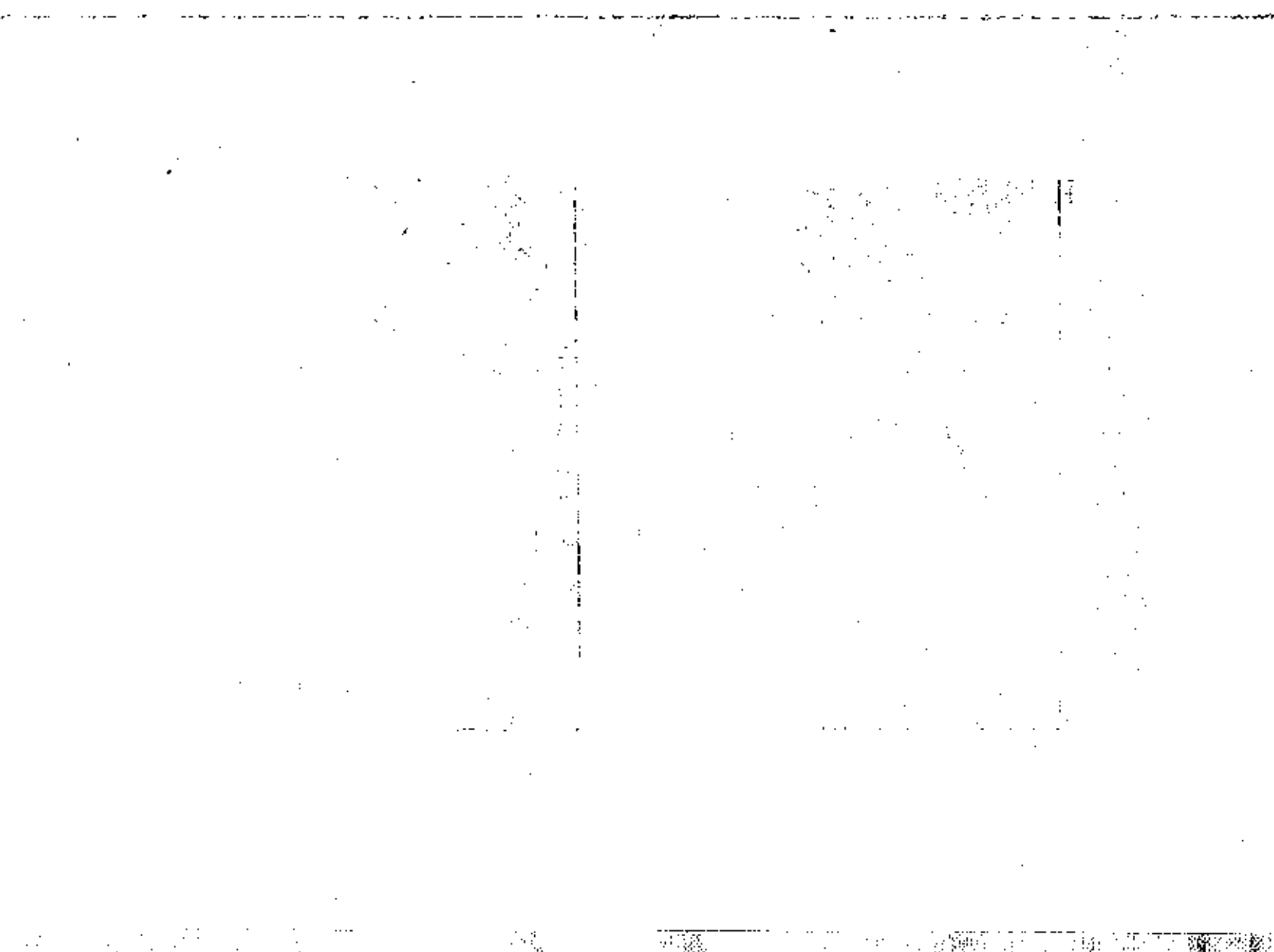

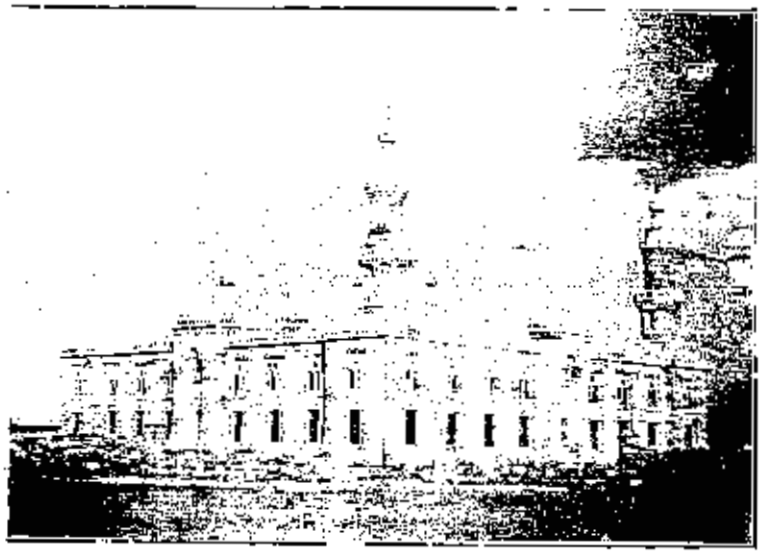

جامع الخرطوم الذي بني حديثاً

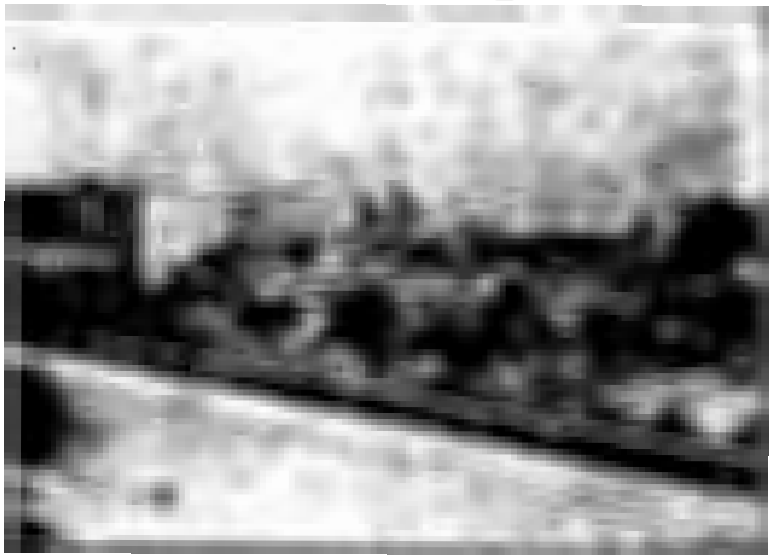

قصر الحاكم العام في الخرطوم وحديقته

فالحكومة قائمة وستقوم بكل ما يطلب منها لانجاح البلاد ونشر العمران فيها وايرادها موارد السعادة . واما الاهلون فامرهم في يدهم فان ارادوا ان ينتفعوا من هذه الفرص من علم الانكليز وسهارتهم ومن خيرات ارضهم فيكون لهم افضل مستقبل يرجى لقوم يسكنون هذا الاقليم . وقد رأيت من نجابة المستخدمين السودانيين الذين شاهدتهم اثناء سفري ما يحمل على الامل ان كل ابناء جنسهم يصيرون مثلهم اذا احسنت تربيتهم

الرسالة الثانية في الخرطوم

لم يكن من نصيبي ان شاهدت الخرطوم قبلما خربها الدراويش ولا حينما شرعت الحكومة الحاضرة في عمارتها لكي تسهل عليَّ المقابلة بين ما كانت عليه وما صارت اليه لكنني قرأت عنها وسمعت ورأيت من صورها القديمة ما يكفي لهذه المقابلة

فقد كانت الخرطوم قبل ان خربها الدراويش قرية كبيرة نشأت نشوءًا طبيعيًّا من غير نظر الى ما يمكن ان تبلغهُ البلاد التي هي عاصمتها ثم استولت عليها الهمجية فخربتها لكي لا يبقى للعمران اثر في هذه الانحاء فامست ركامًا من الاتربة والانقاض ولقد سمعت عن عمارتها الحديثة ورأيت رسمها ولكن ليس السمع كالعيان ولا الرسم كالحقيقة

فأول شيء وقع عليهِ نظري بعد سفر طويل في بلاد قليلة العمارة كثيرة الاراضي الصالحة للزراعة محطة الحلفاية او الخرطوم البحرية وما تُرك لها من المجال الفسيح لتوسيعها ولم يكن يخطر لي ببال ان اجد في قلب افريقية محطة كبيرة مثل هذه ولا انها تشاد في هذا الوقت القصير وادركت غاية الحكومة من تشييدها على هذا المنهاج الكبير ونظرت بعين الخيال الى السنين التالية حينما تتراكم فيها بضائع الصادر قبل بضائع الوارد حينما ترصف فيها بالات القطن بعضها فوق بعض كما ترصف الآن في محطات القطر المصري والتجار يطلبون سرعة شحنها ومعامل اوربا تنتظرها يومًا فيومًا وميازيب الذهب تنهال على هذا القطر ثمنًا لها فان المليون والنصف من الافدنة التي زرعت قطنًا في القطر المصري في العام الماضي انتجت من القطن ما ثمنهُ نحو ثمانية وعشرين مليونًا من الجنيهات فماذا يكون من ملايين الافدنة في كل بلاد الجزيرة وعلى ضفاف النيل واي مستقبل مذخور لها في زوايا الغيب

لقد قال احد الامريكيين واصاب "ان بلاد الجزيرة الآن كما كانت بلاد المسيسبي في اميركا الشمالية منذ نحو مئة سنة" افلا تصير مثل تلك البلاد مصدرًا لثروة طائلة تقدر بمئات الملايين من الجنيهات والقطن الذي جربت زراعتهُ في السودان اجود من القطن الاميركي واثمن

وكل ما يزرع ويجود في البلدان الحارة يزرع ويجود في بلاد السودان كالقمح والذرة والفول والسمسم وقصب السكر ونبات الخروع وشجر السنك وكلها من الحاصلات التي يمكن اصدارها عدا ما يصدر من البلاد من الصمغ والريش والعاج وفيها مجال واسع لتربية المواشي واصدارها . وكل ما يصدق على البلدان الزراعية يمكن ان يصدق على هذا القطر ولا يخفى ان الزراعة في المصدر الحقيقي للثروة لانها تستثمر خيرات الارض وربح الزراعة اوفر من ربح الصناعة والتجارة حتى في اكثر البلدان الصناعية التجارية ولكن لا بدَّ لنجاح الزراعة من سهولة النقل وكثرة العمال وغزارة الماء . اما النقل فستكون هذه السكة من اكبر سهلاته ولا سيما بعد ان تنتشر فروعها في البلاد كلها وقد بدت تباشير ذلك فان الحكومة مدت فرعاً الى مروي في مديرية دنقله ولا شك في ان فروعاً اخرى ستنشأ قريباً من الخرطوم جنوباً فالذين انشأوها وانشأوا لها هذه المحطة الواسعة نظروا بعين العقل الى ما يمكن ان ينتظر لهذه البلاد من النجاح

اما السكان فقليل عددهم لان ظلم السنين الغابرة افناهم فلا يبلغون الآن مليونين في كل بلاد السودان واكثرهم لا يزال على الفطرة فلا ينتظر منهم شيء كثير الآن وقد بلغني انهم ليسوا اهل جد ونشاط فاذا كان عندهم طعام يومهم فلا يهتمون بغدهم ولعل ذلك لا يصدق على الذين اصلهم عربي لكن السكان يزيدون زيادة عظيمة في البلدان الشرقية حالما ينتشر فيها لواء الامن وتهتم حكومتها بالصحة العمومية ومنع الاوبئة كما هو مشاهد الآن في القطر المصري فان سكانهُ يزيدون نحو اثنين في المئة كل سنة وهذه الزيادة لا مثيل لها في مملكة من الممالك الاوربية ولا بد من ان يزيد عدد السكان في بلاد السودان على هذه النسبة او اكثر. هذا من حيث العدد اما النشاط والاهتمام بالمستقبل فقد رأيت الطريق الموصلة اليهما في اول بناء عمومي دخلتهُ في مدينة الخرطوم وهو مدرسة غوردون التي هي من اعظم الاعمال نفعاً لهذا القطر وسيزيد نفعها متى ضُمَّت اليها مدرسة للزراعة يبنى العلم فيها على الاختبار الخاص ببلاد السودان وطبيعة ارضهِ واقليمهِ وهذا الشيء منوي الآن كما اخبرني السنركري مدير هذه المدرسة

وقد رأيت في الوقت القصير الذي جلت فيهِ في غرف الدرس وامكن العمل ما يحقق ذلك فاني رأيت التلامذة دائبين على دروسهم واعمالهم المختلفة دأب من قلهُ في عملهِ هؤلاء يكتبون وذلك يحلون الاعمال الحسابية او يحددون او يخرطون يتعلمون اليوم ما يفيدهم في مستقبل حياتهم . ولتاريخ هذه المدرسة ومباحث اساتذتها في زراعة البلاد وحشراتها والآفات

التي تعتري مزروعاتها ومواشيها وسائر ما يبحث اهل العلم فيهِ فتمايل باحسن تقارير دواوين المعارف في ارقى البلدان عمرانًا

ثم انهُ يرجح ان يهاجر كثيرون من سكان مصر الى هذه البلاد وانفلاح المصري مشهور باجتهادهِ ومواظبتهِ على العمل فيتساعد بهم سكان السودان ويتعلمون منهم بالتدوة . واول ارض زراعية دخلتها في بري بجوار الخرطوم رأيت فلاحها مصري الاصل وهو شيخ طاعن وقد خدم الاطيان التي هو فيها خدمة خير بالزراعة والعمال الذين معهُ سودانيون ولكنهم يعملون معهُ بنشاط على ما يظهر اقتداء بهِ . سألتهُ عما لقيهُ في زمن حكم الدراويش فتنهد ثم تبسم وقال عذبونا كثيرًا ولكن الحمد لله فقد خلصنا من ذلك الظلم

ومياه النيل غزيرة جدًّا اغزر مما يحتاج اليهِ القطر المصري لو امكن التحكم فيها ولاسيما زمن الفيضان حين يتصبُّ جانب كبير منها في بحر الروم . والبناء الذي يبنى للري في هذه العاصمة هيكل يجتمع فيهِ مهندسو الري لدرس الاعمال التي يمكن عملها لري بلاد السودان من غير ان يلحق بالقطر المصري ضرر ولا يتعذر على اهل الهمة والنشاط والعلم والتدبير ان يستنبطوا طرقًا لخزن مياه الفيضان التي تزيد عما يلزم لري القطر المصري واستعمالها في بلاد السودان كما لا يتعذر عليهم ان يقللوا ما يتبخر من المياه بانتشارها في البطائح الاستوائية

ولكن نجاح الزراعة لا يكفي وحدهُ لارتقاء البلاد وان كان لهُ اليد الطولى في ارتقائها فلا بد من ادارة ماليتها واحكامها وسائر اعمالها . واهتمام رجال المالية بادارة مالية البلاد وتقديم الاموال اللازمة لما يجري فيها من الاعمال والاعتدال في ذلك حتى لا يبلغ التوفير درجة الشح ولا الكرم درجة الاسراف ولا ينفق غرش في غير موضعهِ يضمن لمالية السودان السير في سبيل التقدم المستمر واستعمال المال في اصلح ما يستعمل لهُ

وقد بلغني من الكولونل برنارد باشا ان المال الذي توفر لديهِ في آخر العام الماضي من زيادة الايرادات والتوفير في المصروفات بلغ ٢٢٥٠٠٠ جنيه وسينفق هذا المبلغ كلهُ في اصلاح البلاد واستثمار مصادر ثروتها

وبلغني من الذين حادثتهم في شؤون السودان ان محاكمهُ تعدّ مثلاً في سهولة التقاضي وعدل الاحكام وسرعة انجاز الاعمال وودوا لو رأوا مثل هذه السهولة وهذه السرعة في القطر المصري . ورأيت في المستشفى الاميري من الاستعداد التام لمعالجة الامراض والآفات والاعتناء بالمرضى الذين يعالجون فيهِ ما يتضح منهُ ان الهمم مبذولة في ترقية البلاد واسعاد سكانها

ولا يخفى ان الاشراف على هذه الاعمال كلها مع ادارة الجيش المصري منوطة برجل

اشتهر بدهائه ولين عريكته كما اشتهر بحسن سياسته واعني به السر رجينلد ونجت باشا سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام ولقد ادهشني ما رأيته في وجوه علماء البلاد واعيانها يوم خطر عليهم في عيد الاضحى فانهم كانوا يصافحونهُ مسرورين مبتهجين لا كأنهُ حاكم سام وآمر مطاع بل كأنهُ صديق حميم ووالد شفيق تجب طاعتهُ كما تجب طاعة الوالد

هذا هو الاساس الواسع الجدران الذي رأيتهُ في مدينة الخرطوم قبل ان اطلعت على التفاصيل وكيفما نظرت اليهِ من وجهٍ حسي او معنوي رأيت فيهِ دليلاً كبيرًا على مستقبل بسّام تهيأ بهِ هذه البلاد

اما الخرطوم نفسها كمدينة من المدن فاتساع شوارعها ونظافتها التامة وانارتها بالنور الكهربائي الساطع الذي انيرت بهِ بعيد دخولي اليها ونظامية مباني الحكومة فيها وانتظام المساكن الجديدة واتمام ذلك كلهِ في بضع سنوات تدل على انهُ لا تمر بضع سنوات أُخرى حتى ترصف الشوارع كلها وتصير ترش يوميًّا بماء النيل وتغرس الاشجار على جوانبها ويتشأ الكبريان اللذان يفصلان بينها وبين الخلفاية وام درمان فتصير في وسطها مركزًا لتجارة السودان ومصدرًا ينتشر منهُ نور العلم والعرفان في كل مجاهل افريقية

وهذا امر لا يصح الاغضاء عنهُ وهو ان كل الذين يساعدون الحكومة في بناء هذه المدينة وتوسيع تجارتها وزرع الاطيان الشريفة منها ليسوا من اهالي البلاد الاصليين بل من الذين هاجروا اليها من السوريين واليونان والايطاليين وان بعض فضلاء الاوربيين انشأوا فيها البنوك والفنادق فلهم كلهم فضل لا ينكر في مساعدة حكومة السودان وان كانت الحكومة قد سهلت لهم كل السبل وساعدتهم مساعدة كبيرة وعسى ان يستمروا على هذا الاجتهاد وهذا الدأب وان لا يكون منهم للبلاد الأكل نفع

وما تمَّ حتى الآن على كثرتهِ يعدّ قليلاً جدًّا بالنسبة الى ما تحتاج البلاد اليهِ حتى تصير من البلدان الرائقة الناجحة في زراعتها وصناعتها وتجارتها ولا بدَّ من ان يتم اضعاف اضعافهِ وتمر سنون كثيرة قبل البلوغ الى الغاية المطلوبة

ولكن مهما بذل رجال الحكومة من العناية لانجاح هذه البلاد ومهما ساعدهم في ذلك الغرلاء لا يتم نجاحها ما لم يساعدهم سكانها وفي مقدمتهم عمارها واعيانها فالسبيل المفتوح امامهم الآن سبيل مجد وفلاح وما عليهم الاَّ اغتنام الفرص لنيل ما تصبو اليهِ نفس كل حر كريم